مطبوعات حديثة

مسالك الابصار

« في ممالك الامصار »

لاحمد بن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ بتحقيق احمد زكي باشا ، طبع في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤ م ص ٣٩٨

نشأ ابن فضل الله مؤلف هذا الكتاب في دمشق على عهد كثر في الشام النابغون في مثل علمه ، وعلمه الادب والتاريخ والجغرافية والاصطرلاب وحل التقاويم وصور الكواكب ، فكان من معاصريه او من سابقيه وتاليه في هذا القطر امثال علم الدين البرزالي والحافظ الذهبي والحافظ ابن كثير وصلاح الدين الصفدي وابو الفداء وشيخ الربوة وتقي الدين المقريزي وابن مفلح وابن الوردي والصلاح الكتبي والبارزي وغيرهم من الائمة الذين كان الشام مطلع شمسهم ، فمزجوا الادب بالتاريخ والجغرافيا بالفلك ، وخلدوا لنا من مصنفاتهم ما لا يبلى على الايام جديده .

لا جرم ان توفر العلامة احمد زكي باشا على احياء كتب امثال ابن فضل الله هو احياء للآداب العربية ، فبالامس اخرج لهذه الامة كتاب التاج للجاحظ والاصنام لابن الكلبي من الكتب المعتبرة بتحقيقه الممتع واليوم يحيي لنا هذه المعلمة او الموسوعة العربية آخذاً الجزء الاول منها من « كتاب مدشوت في الاضابير المبعثرة بين الاوراق المنثرة في اسافل الخزانات بسراي طوپ قبو بالقسطنطينية » فكان كتاب مسالك الابصار الذي طالما حامت طيور الافكار على نشره خصوصاً وهو « اكبر ينبوع للقلقشندي في صبح الاعشى » — من احسن ما تخدم به هذه اللغة لانه مادة مهمة في الادب والتاريخ والصناعات والاثارات ، وأهم ما يُغتبط به ان المؤلف من كبار المحققين كتب ما كتب بذوق كامل وفهم غريب ، ولم يطبع من كتبه غير « التعريف بالمصطلح الشريف » وهو مادة واسعة في حضارة عصره على صغر حجمه .

والباب الاول من هذا الكتاب في مقدار الارض وحالها وكريتها والبرهان عليه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قال فيه ان المكوكب « فلك البروج » في رأي فلاسفة الاسلام هو المعبر عنه عند الشريعة الشريفة بالكرسي ، والاطلس هو المعبر عنه عندهم بالعرش (ص١٨) ونقل عن شيخه فريد الدهر (٣١) ابي الثناء محمود بن ابي القاسم الاصفهاني جملة هذا نصها : « لا امنع ان يكون ما انكشف عنه الماء في الارض من جهتنا منكشفاً من الجهة الاخرى ، واذا لم امنع ان يكون منكشفاً من تلك الجهة لا امنع ان يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ماعندنا او من انواع واجناس أخرى » فعلق الناشر على ذلك بقوله : « للاصفهاني (وهو بمصر) فضل السبق على كرستوف كولمبس (وهو بالاندلس) لانه قال بهذه النظرية قبله بقرن ونصف قرن . وللاصفهاني فضل اكبر على مكتشف امريكا : لانه تخيل وجودها بقوة الفطنة والاستدلال ، واما كولمب فتخيل فقط وجود طريق جديد يوصل للهند من جهة الغرب . توفي ابو الثناء في سنة ٧٤٩ هـ ١٣٤٨ م » . واما كولمب فقد اجتهد في اقناع فردبناند وايزابلا صاحبي الاندلس بصدق نظريته في سنة ١٤٩٢ ميلادية (الموافقة لسنة ٨٩٨ هـ) اهـ » .

وتكلم المؤلف بعد اشباع الكلام على الارض وصفاتها وتقويمها وطبيعتها في الارتباط بين الكائنات الحية وبين الارض فذكر الجبال واتصالاتها على ما كان يتخيله الناس في عصره وكذلك الانهار ، وقال المؤلف ان الامير ابا دبوس بن ابي العلى ابي دبوس ووالده آخر سلاطين برالمدوة من بني عبدالمؤمن وصل الى بحرة النيل الاعلى وان عالماً مغربياً أقام بالسودان ٣٥ سنة وأخبر المؤلف عن اصل النيل وتوغله لمعرفة منبعه اي ان المسلمين اكتشفوا منابعه قبل الافرنج . وأفاض في الآثار البينة في اقطار الارض فعد منها الكعبة والمسجد الحرام المحيط بها ، وما هناك من مقامات ومشاهد ، والمسجد النبوي ، والمسجد الاقصى ، وقبر الخليل ، ومسجد دمشق ، وبعض المزارات في عصره ، والبيوت المعظمة عند الامم ، والآثار المشهورة بالصين وتركستان وفارس والعراق والشام والحجاز واليمن ومصر وبلاد المغرب والاندلس ، والقصور المشهورة ، وختم هذا الجزء في وصف الديارات والحانات المستفيضة الشهرة . وهذا الفصل استغرق ١٤٠ صفحة او اكثر من ثلث المجلد وهو برأسه كتاب ادب واجتماع لطيف جداً يسلي الحزين ولا نذكر اننا اطلعنا في شيء من كتب الادب على وصف الحانات ، فان ذلك مما قد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يتبرم به اهل العصر على مابلغته الحرية في الغرب ، ولكن ابن فضل الله عدّه وعد ذكره من المألوف الذي لا يستنكر ، ولا يعاب صاحبه مهما بلغ من جلالة قدره .

والذي يزيد في فوائد مسالك الابصار ان مؤلفه ساح كثيراً ولاسيما في مصر والشام والحجاز ، وجل ما كتبه من تحقيقه الخاص والناشر اثابه الله لم يغفل عن التنبيه على مواطن الفائدة من كلامه فعنون لها بعنوانات تلفت النظر اليها مثل قوله في (وصف الحرم المقدسي ومزاراته الى سنة ٧٤٣ هـ تصنيف خاص به لاحمد بن امين الملك) (وصف فني عربي للبناء على الطراز العربي) (مشهد الحسين بن علي بن ابي طالب بعسقلان) « والمؤلف ينكر وجوده بالقاهرة ويقول ان الاغلب انه لم يتجاوز دمشق وان العباسيين حملوا أعظمه فيما بعد ودفنوها بالمدينة المنورة » عناوين أشبه بعناوين الصحف الراقية لعهدنا عند تدوين الحوادث اليومية الكبرى ! والمؤلف من كبار الكتاب في عصره برع في الوصف ، ولم يكن في الشعر أضعف من شعراء دهره ، وربما فاقهم في بديهته في الفنين كما يفوق كثيرين بعلمه واجتهاده ، ومما وصف به السموات المسطحة في مسجد قرطبة قوله : ضروب صنائع من الضروب المسدسة والمدرّب ، وهو صنعة الفصّ وصنعة الدوائر ، والمداهن ويشبه بعضها بعضاً ، بل كل سماء منها مكتف بما فيه من صنائع قد أحكم ترتيبها ، وأبدع تلوينها ، بالوان الحمرة الزنجفرية ، والبياض الإسفيداجي ، والزرقة اللازوردية ، والزرنوق البـاروتي ، والخضرة الزنجـارية ، والتكحيل النقسي .

ومن فوائده ماقاله في الفسيفساء وصنعها وهو مما لا يكاد يوجد له اشارة في شيء مما بايدينا من الكتب وهاك ماقال : « والفسيفساء مصنوع من زجاج يذهّب ثم يطبق عليه زجاج رقيق ، ومن هذا النوع المسحور (لعله المسجور) واما الملوّن فمعجون ، وقد عمل منه في هذا الزمان شيء كثير برسم الجامع الأموي وحصل منه عدة صناديق وفسدت في الحريق الواقع سنة اربعين وسبعمائه وعمل منه قِبَل للجامع التنكزي ما على جهة المحراب ، غير انه لايجيء تماماً مثل المعمول القديم في صفاء اللون وبهجة المنظر ، والفرق بين الجديد والقديم ان القديم قطعة متناسقة على مقدار واحد ، والجديد قطعه مختلفة . وبهذا يعرف الجديد والقديم اه » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وعلى الجملة فان هذا الجزء برمته مما يستفاد من كل صفحة من صفحاته والناشر حبب مطالعته الى القارئ بما حلاه به في كل نكتة وكل فصل وباب من العناوين في الهامش والحواشي المفيدة في أسفل الصفحات وفي آخر الجزء . وقد قطع جمل المؤلف التي ابقاها بحالها ، وجعل بينها فواصل واشارات ونقطاً ليسهل متناولها . ولو لم يكن في نشر امثال هذه الاسفار الا احياء فصح كثيرة من اللغة تعاد الى الاستعمال لكان اعظم بها من فائدة . من ذلك ان المؤلف استعمل الفاظ «شمعدانات» «درابزين» «شحم ولحم» لنوع من صناعة البناء «روحان في جسد» من مصطلحات البناء «عمودين شمعية» «البساتل ملبسة بالنحاس الاصفر» «ملفوفة» «مثعبنة» «لوح الرسم» وهو المعروف الآن بالخريطة الجغرافية «لوح الدائرة» فسرها الشارح بانها الخريطة الجامعة التي نسميها الآن مابموند تعريباً للفظة افرنسية (Mappemonde) تنقبل اي تُلزم . و «في خزائن السور خزائن» اي المحال التي فيها سمك كثير ويجمع المؤلف ديراً على ديارات وديرة وديارة ونحن نجمعها على أديار . واستعمل لفظ العُمر «بضم العين» للدير الكبير والجمع اعمار ومن سجعات بدائع البدائه «تعاطينا العمل فيه على عادة الشعراء الذين قطعوا طريق الاعمار ، بطروق الاعمار ، وضيعوا العين والعَقار ، في تحصيل العين والعُقار» . «جرياً على عادة خلفاء البلغاء ، وظرفاء الادباء ، ومجان الشعراء ، الذين نبذوا الوقار بالعراء ، فقطعوا طريق الاعمار ، بطروق الاعمار» .

واطلق ديراني وديرية على ساكن الدير وساكنته مثل مانقول راهب وراهبة وجمع لفظ صليب على صُلُب وعلى صلبان نادراً وجمع جماعة على «جمائع» (٣٦٦ و٣٦٩) واستعمل «الطنجير» لهذا القدر الذي يطبخ به والعامة يقولون «تنجرة» زعموا انها تركية الاصل واستعمل «شوربا» للحساء الذي نقول له «شوربه» عن الفارسية شوربا ج و«الدشيش» لهذا الصنف من العدس المجروش و «الاصلاص» (٣٨٠) جمع صلصة من (Salsa) الطليانية واللاتينية و (Sauce) الفرنسية . ولم يقصر الشارح في التعليق على الفاظ المدن والانهار والاشخاص وغيرها بما يقابلها من اللغات الافرنجية او يرجعها الى اصلها الاعجمي مثل «مرتيان» Marcianus «الخندروس» Alexandrus «الاشتاديو» Stade وهو يساوي ثمن الميل والميل ٤٠٠٠ ذراع «القنباص» Compas و«نهر أتيل»

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(فولجا Volga اكبر انهار اوربا) « بحر الظلمة الجنوبي » هو نهر النيجر بحر الانقليشين تعريب لفظة English بصيغة الجمع العربي ومعناه بحر الانكليز وبلاد الهياطلة Les Huns « أطرابلس الغربية » Tripoli de Barbarie هيكل الزهرة Port - Vendres وادي آش Guadix واستعمل « المبازل » جمع مبزل وهو المثقب اي الآلة التي تثقب بها الدنان والبراميل ليسيل ما فيها و يسمى عند الفرنسيين (Canule, Canette. Cannelle) و يطلق على ما يطلق عليه المبضع عند الجراحية ٠

وهنا نستمع عفو الاستاذ الناشر مأخوذين بحلمه وعلمه فنعرض عليه بعض هنات وقعت في الطبع في بعض الاعلام ببلاد الشام ، منها تشديده ياء « سَلَمِيَة » المدينة المعروفة وقد وردت (٣٢٨ و٣٢٩) في شعر المتنبي بالتخفيف ونص البكري في معجم ما استعجم انها من جملة مايخفف من اسماء البلدان قال : سلمية بفتح اوله وثانيه و كسر الميم وتخفيف الياء من ثغور الشام معروفة قاله ابو حاتم ، قال وكذلك سُلُقية ورومية وأنطاكية مخففات الياء كلهن ٠ وشدد السين من جبة «عسّال» الصواب تخفيفها وهي الى اليوم معروفة بعسال الورد في جبل قلمون وأعجم السين من « سرعين» (٢١٥) و «سميساط» (١٩٤) والدال من جدر فقال شرعين وشميشاط وجذر ونص الذهبي في المشتبه في اسماء الرجال على المدرسة السميساطية فقال : السُّمَيساطي الشيخ ابو القاسم علي بن محمد من اكابر الرؤساء بدمشق حدث عن عبد الوهابي الكلابي ووقف الخانقاه وبمجمتين ولا ياء الشمشاطي ابو الربيع محمد بن زياد الشمشاطي روى عنه منصور بن عمار وطائفة من اهل شمشاط ٠ ونص في مكان آخر ان السميساطي بمهملتين ٠ وقال السيوطي في تحرير الانساب السميساطي بالضم وفتح الميم والمهملة بينها تحتية ساكنة الى سُمَيْساط بلد بالشام ٠ وتعرض السمعاني في الانساب للسميساطي ايضاً وقال ان هذه التسمية بضم السين المهملة بعدها ميم وسكون الياء المنقوطة باثنتين من تحتها وبعدها سين أخرى مفتوحة ٠٠٠٠ وأعجم الدال من بلودان (٣٥٨) وسدوم فقال بَلوذان وسنوم والاولى بدون اعجام وقال (٨٢) «حمة جدن» بالنون والصواب جدر بالراء وهي «ام قيس» المعروفة اليوم بمكيس احدى المدن العشر المعروفة في التوراة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكانت عامرة على عهد المسيح وهي على ثلاث ساعات غربي إربد على رأس الجبل المشرف على وادي اليرموك وتحت هذه القرية على شاطئ اليرموك الايمن ارض الحَمّة التي فيها عدة ينابيع حارة (راجع قاموس الكتاب المقدس لبوست) وقد نص ان حمة ام قيس (جدر) من جملة ينابيع الأُردن . وكانت جدر في الاسلام احدى كور الأُردن قال ابو ذؤيب :

فما ان رحيق سبتها التجـا ر من أذرعات فوادي جدر

وقال شيخ الربوة : « ثم نهر يصب في بحيرة طبرية ويخرج من الحَمة التي لقرية يقال لها جدر » . وقال «جسر يعقوب» والصواب « جسر بنات يعقوب » و « جسر الصنيرة » والصواب « جسر الصنبرة » بالكسر ثم بالفتح والتشديد ثم سكون الباء الموحدة وراء وهو موضع بالأُردن مقابل لعقبة أُفيق ويقال (فيق) بينه وبين طبرية ثلاثة اميال كان معاوية يشتو بها — قاله ياقوت في المعجم . وذكر « الفوّار والمدان » من الانهار التي تمد الأُردن ، والأرجح «دان» وهي تل القاضي على مارجحه شراح التوراة ويسميه اهل تلك الجهات اليوم نهر اللدّان . وفي (ص ٨١) « ينزل العمقا الى انطاكية» والصواب «العَمْق» البحيرة المعروفة وقال في حواشيه «الانصارية والنصيرية» وليس على ذهننا اسم الانصارية في هذا الجبل وقال « ان شرقي بصرى قرية تعرف بدنين » ونظن انها « دبين » وهي قرية من عمل جبل الدروز اليوم شرقي حوران . وادعى الشارح في حواشيه (ص٦) او « تصويباته وتصحيحاته » ان نصيبين مما ها الاتراك « نزيب » تمييزاً لها عن نصيبين التي بالعراق ، والحقيقة ان نزيب هي غير نصيبين وهي معروفة وبجوارها كانت ملحمة ابراهيم باشا المصري مع عسكر العثمانيين في القرن الماضي . وكذلك لم يصب شاكلة الصواب في دعواه ان الاتراك أطلقوا لفظ إربل باللام على «إربد» من بلاد عجلون اليوم المعروفة قديماً بجبل عوف تمييزاً لها عن اربل الشهيرة بارض الموصل فان لفظ اربد بالدال لم يتغير منذ الزمن الاطول وعبارة ياقوت فيها هكذا :

« أربد بالفتح ثم السكون والباء الموحدة قرية بالأُردن قرب طبرية عن يمين الطريق المغرب ، بها قبر ام موسى بن عمران (ع) وقبور اربعة من اولاد يعقوب (ع) وهم دان وايساجار وزبولون وكاد فيما زعموا » ونظن ان ياقوت وَهِم في اربد فجعلها بفتح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الالف وان كان تحريف العامة اليوم وقبل اليوم لا يعتدُّ به كثيراً . وفي هذه القرية مات يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٥ قال الطبري ومات بأربد من ارض البلقاء وصلى عليه ابنه الوليد الخ . وهذه اربد من جبل عجلون بعينها وفي قاموس الكتاب المقدس : « بيت ارَبئيل (بيت دارالله اومكمن الله) (هو ١٠ : ١٤) اربيله وهي اربد الحالية شرقي بحر طبرية » . وقد أخطأ الاستاذ بول (Buhl) بقوله في المعلمة الاسلامية ان إربد او أربد هي ايضاً اربئيل القديمة وهي في البلقاء على ١٢ ميلاً عربياً من بَيْسان وهي التي هلك فيها الخليفة يزيد الثاني . فانه ليس في تلك الجهات بهذا الاسم الا اربد هذه ولعله تسرب اليه الوهم من قول الطبري انها في ارض البلقاء . والبلقاء ليست محدودة على ما ينبغي فقد قال ابو الفدا في تقويم البلدان انها احدى كور الشراة وقاعدتها حُسبان والبلقاء عن اريحا على مرحلة واريحا عن البلقاء في جهة الغرب . وقال ان جبل الشراة في جنوبي البلقاء وخلفه البرية . ومن قبله قال ياقوت : البلقاء كورة من اعمال دمشق بين الشام ووادي القرى قصبتها عَمّان ... ومن البلقاء قرية الجبارين ... وقال قوم و بالبلقاء مدينة الشراة شراة الشام ... و بالجملة فان دعوى ان اربد أطلق عليها الترك لفظ اربل ليميزوها عن مدينة اربل الموصلية لا سند لها في كتب التاريخ ولا الجغرافية وكذلك ابدالهم نصيبين بنزيب والله اعلم .

محمد كرد علي